جامعة الكوفة
كلية التربية الأساسية

بواعث الخطاب الوطني في شعر الوائلي

الدكتور عباس علي الفحام

المحتويات

المقدمة	**٣**
التمهيد: الوائلي الشاعر	**٤-٧**
بواعث الخطاب الوطني	**٨-٣١**
الأول : الانتماء والولاء	**٨-١٣**
١- بغداد	**٨-١٢**
٢- الفرات	**١٢-١٤**
الثاني : الشخصيات الوطنية والأدبية	**١٤-١٩**
١-المرثيات	**١٤-١٦**
٢- الإخوانيات	**١٦-١٩**
الثالث : الاغتراب	**٢٠-٢٥**
١ الغربة الاختيارية	**٢٠-٢٣**
٢ الغربة القسرية	**٢٣-٢٥**
الرابع : رفض الأنظمة الاستبدادية والطائفية	**٢٦-٣١**
١ الحكم العارفي	**٢٦-٢٧**
٢ الحكم الصدامي	**٢٨-٣٠**
٣ نبذ الطائفية	**٣١**
الخاتمة	**٣٢**
الهوامش	**٣٣-٣٤**
المصادر	**٣٥-٣٦**

المقدمة

لم تتناول الدراسات الأكاديمية شعر الشيخ الوائلي ببحوث وافية، ولاسيما المنطلقات التي أسست لقريحته الشاعرة، ومن هنا جاء هذا البحث بعنوان(بواعث الخطاب الوطني في شعر الشيخ الوائلي) ليدرس هذه الظاهرة الجديرة بالوقفة المتأنية .

وجاءت خطة البحث في تمهيد عرض للشخصية الشاعرة للشيخ الوائلي ، وأربعة مباحث بغية الإحاطة بهذه البواعث وانحصرت بما يأتي :

الأول : الانتماء والولاء

الثاني : الشخصيات الوطنية والأدبية

الثالث : الاغتراب

الرابع : رفض الأنظمة الاستبدادية والطائفية .

واشتملت الدراسة على مصادر متنوعة من الشعر الحديث والقديم فضلا عن النقد ومصادر البلاغة التي أعانت الباحث كثيرا على الوقوف على النص الأدبي وقفة تحليل واستنتاج ، مثلما كان للمصدر التاريخي الفضل في إلقاء الضوء على المعلومة القديمة التي جاءت في قصائد الشيخ الوائلي.

يبقى البحث محاولة علمية جديدة للكشف عن الخطاب الوطني لشخصية وطنية جرت عليها تعمية واضحة طوال عقود من الزمن في عهود النظام السابق المباد في العراق. أرجو من الله تعالى أن أوفق فيه ، والحمد لله رب العالمين.

التمهيد

الوائلي الشاعر

ثمة بيئتان لنشأة كل شاعر، الأولى تتمثل في البيت الذي ينشأ فيه الشاعر وتأثير الأسرة فيه واتجاهاتها الثقافية، وأما الثانية فتتمثل في المحيط الاجتماعي له من تأثير المجالس الأدبية والمدارس الثقافية وتوجهات المجتمع ورجالاته العلمية ، ومن صهر هاتين البيئتين تتحصل رصانة الثقافة وتتعضد أواصر المعرفة فإذا ما وجدت لها أرضا خصبة من الموهبة فإنها ستتفتق عن إبداع ما في فن القول الشعري أو الخطابي الأدبي ، وربما كان ذلك الأمر ينطبق على المعارف الإنسانية الأخر .

فأين حظ الشيخ الوائلي من هذه المقدمة ؟

لا ريب في أن هاتين البيئتين قد توافرت عليهما موهبة الشيخ الوائلي في مجال الإبداع الشعري ، فالوائلي نشأ في بيت الخطابة الحسينية التي أحد أعمدتها الشعر العربي، فهو من أسرة هاجرت إلى النجف من بلدة الغراف لطلب العلم وكانت معروفة فيها باسم جدهم الأعلى بآل حرج ووالده الشيخ حسون بن سعيد الليثي الوائلي كان من قراء المنبر الحسيني وقد تلقف الوائلي الابن هذه الموهبة فكان يقرأ المقدمة في العقد الأول أو نهايته من عمره، حتى إذا امتلك أسباب التحصيل العلمي الحوزوي والأكاديمي عمل على تطوير المنبر الحسيني وترصينه بمساحة علمية جديدة، إذ أدخل فيه المعارف القرآنية، فلم يعد المنبر مقصورا على ذكر الفاجعة الحسينية وما جرى في كربلاء من أحداث جسام عام واحد وستين للهجرة في استشهاد الحسين عليه السلام وسبي النساء الفاطميات ، بل تعداه إلى صور جديدة من الدرس التفسيري للقرآن الكريم وما يتخلل ذلك من استشهاد بالشعر أو الحكمة

واستئناس بالحادثة التاريخية بغية التوضيح ، لقد أصبحت مجالس العزاء الحسيني موسوعية أشبه بكتب الأمالي التي تعرض الآية الكريمة من الكتاب العزيز وتوضحها بمختلف الشواهد الكلامية والتاريخية والأدبية كما في أمالي الشيخ المفيد وأمالي السيد المرتضى .

تتخذ المجالس الحسينية الخطابة الشفوية أساسا لها في التأثير والإقناع وكلما كان الشعر حاضرا كانت الخطابة أبلغ في التأثير لأن البيئة عربية محضة في التذوق الأدبي تأنس للشعر وتطرب له ، لذلك كانت سبيلا مهيعا للشيخ الوائلي لتفتق القريحة الشعرية وكثيرا ما يستشهد بالشعر المتصل بالمناسبة الحسينية أو المتعلق بالحكمة والتجارب الإنسانية لاسيما الشعر الذي أبدعته قريحته رحمه الله .

هذا من جانب ومن جانب ثان فإن مدينة النجف القديمة تعد بمثابة جامعة علمية كبيرة لافتة للنظر بهدوء أزقتها مع بدء ساعات الدرس في الصباح الباكر من كل يوم إلى انتهائه قبيل أذان الظهر ، جامعة تضم بين جنباتها في أطرافها الأربعة (البراق والعمارة والحويش والمشراق) العديد من المدارس الدينية التي تعتمد العربية أساسا لها في تدريس الأصول والفقه الإسلامي وتتخذ من تعليم النحو العربي والبلاغة العربية والاستشهاد بالشعر العربي الفصيح سبيلا للوصول إلى فهم صحيح للنص القرآني واستدلالاته العميقة .

كانت بيئة النجف - وما زالت - بيئة أدبية تكثر فيها المجالس والإخوانيات الأدبية فيتبارى فيها أصحاب الشعر بإبداعاتهم إلى الحد الذي يحلو لهم أن يسموا ندواتهم ومساجلاتهم بالمعارك، إشارة إلى شدة احتدامات الردود الشعرية فيها وتفاعل المجتمع معها كما في معركة الخميس الشهيرة ومن أقطابها الشيخ جعفر الجناجي الكبير صاحب كشف الغطاء، والسيد محمد زيني، والسيد صادق الفحام،

وربما تدخل المرجع الديني السيد مهدي بحر العلوم فيها لفض النزاع الشعري وحسمه[1] .

ومن هنا نجد في هذه البيئة الخصبة ولادات متكررة لقامات شعرية فاعلة ومبدعة أمثال الشيخ محمد رضا الشبيبي والسيد أحمد الصافي النجفي والشاعر الكبير محمد مهدي الجواهري والسيد مصطفى جما الدين والشيخ أحمد الوائلي والشيخ الدكتور محمد حسين الصغير وأسماء كثيرة لامعة في سماء الشعر العربي إلى الحد الذي حدا بالشيخ علي الخاقاني أن يضع لها مصنفا بعنوان (شعراء الغري) وضم المئات من الشعراء، ومن الجدير بالذكر أن العطاء الشعري لهذه الأرض ظل غزيرا إلى الوقت الراهن، فاستدرك حديثا على معجم الخاقاني أكثر من مستدرك كما في (مستدرك شعراء الغري) للمرحوم كاظم الفتلاوي .

الشيخ الدكتور أحمد الوائلي-إذن- امتداد طبيعي للمدرسة الشعرية النجفية التي تفضل الشعر الكلاسيكي العمودي دائما في موروثها الفني، وهو شعر في أكثره مناسبات فاعلة تمس حياة الجمهور ناهيك عن تفاعل الشاعر معه وانصهار ذاته في أحداثه التي قيلت فيه .

وفي وسط ذلك الاحتدام الأدبي كله لم يكن الشعر مادة المترفين بل كان أداة الوعاظ وبث الفضيلة، وهو كذلك صوت المظلومين ومناهضة الظالمين ، كان الشعر النجفي صوت الأمة الحي الذي يتابع الحدث ويرصده فيقيم منه ما اعوج ويصلح فيه ما انهدم ، في الشعر النجفي لن تجد للطائفية مكانا إذ لا أذن تصغي ولا يد تصفق لمثل هذه الأصوات الشاذة، بل تجد دائما صوتا يدعو للوحدة ورص الصف والدعوة إلى التلاحم والتعاضد ، لأن طبيعة الفكر في هذه المدينة نابع من الفكر الإسلامي الأصيل المتمثل بمحمد (ص) وعلي (ع) وأهل بيته الأطهار من الأئمة المعصومين

من ولد الحسين عليهم السلام أجمعين والصحابة المنتجبين ، وهو - لا ريب - فكر جامع غير مفرق .

إن مدينة النجف الأشرف تتبنى حب أهل البيت طريقا للوصول إلى لم الشمل الإسلامي أسوة بسيرة العظماء من الأئمة المعصومين الذين يرون في أنفسهم أئمة شرعيين للمسلمين جميعا فعملوا على هذا الأساس ولعل سيرهم المشرفة تحكي ذلك ، وأتباعهم في العالم ولا سيما في النجف ينتهجون سبيلهم فيحاولون الانفتاح على الآخر مهما اختلف معهم في العقيدة والمذهب .

وتأكيدا على هذه الفكرة جاء هذا البحث ليدرس الخطاب الوطني وبواعثه لشعر الشيخ أحمد الوائلي في ديوانه وسيكون في أربعة مباحث على النحو الآتي :

الأول : الانتماء والولاء

الثاني : الشخصيات الوطنية والأدبية

الثالث : الاغتراب

الرابع : رفض الأنظمة الاستبدادية والطائفية

بواعث الخطاب الوطني

يمكن رصد بواعث الخطاب الوطني في شعر الشيخ أحمد الوائلي بالمحاور الآتية :

الأول: الانتماء والولاء

١- بغداد

إن أكثر ما يلحظ على الإنجاز الشعري للشيخ الوائلي في ديوانه هو النفس الوطني الذي يسود في قصائده كلها وفي موضوعاتها المختلفة ، فثمة تشبث بالأرض واعتزاز بالبلاد يتنامى مع الحدث الشعري لاسيما في قصائد الغربة كما سيمر بنا في البحث ، والشاعر يعبر عن كل ذلك بشكل عفوي وصادق إذ نجد له في (بغداد) أكثر من قصيدة تحمل هذا العنوان الصريح ، وهو حين يستحضر بغداد يستحضر معها أمجادها وترفها وحضارتها ورقتها دائما في سمة موضوعية متكررة في كثير من مناسباته مثل قوله[٢]:

بغداد يا زهو الربيع على الربى بالعطر تعبق والسنا تتلفع
يا ألف ليلة ما تزال طيوفها سمرا على أطياف دجلة يمتع
يا لحن معبد والقيان عيونها وصل كما شاء الهوى وتمنع

والشاعر يتخذ من كل ذلك مفاتيح للولوج إلى غرضه، فبغداد التي ارتبطت بدجلة ورائق مائه، وبالعطر وبليالي الأنس من ألف ليلة وليلة، وألحان معبد المغني العباسي، أراد منها تبيان حالة التناقض بين هذه الصورة المترفة في العراق وصورة ثانية تقابلها من الحرمان والفقر نتيجة سياسات الحاكمين فقال[٣] :

بغداد يومك ما يزال كأمسه صور على طرفي نقيض تجمع

يطــغى النعيــم بجـــانب وبجانب يطـــغى الشقا فمرفه ومضيـــع
في القصر أغنية على شفة الهوى والكوخ دمع في المحاجر يلذع

ويبدو أن الشاعر حين يكرر النداء باسم بغداد ليس من باب التلذذ فحسب بقدر استيحاء رفض طبيعة هذه الحاضرة العتيدة لهذه التناقضات المصطنعة نتيجة التفرقة بين هذا وذاك على أساس يخالف تقبلها للآخر وانصهار أبنائها فيها لأنها أنشئت أساسا عاصمة الدنيا والحضارات لذلك يقول الشاعر في غرضه الذي ترامى إليه[٤] :

ويصان ذاك لأنه من معشر ويضـــام ذاك لأنه لا يـــركع
كبرت مفارقة يمثل دورها باسم العروبة والعروبة أرفع

والانتماء للوطن عند الشاعر انتماء للتاريخ وأمجاده واعتزاز بهذا الاسم الذي ملأ أسماع الأزمان، فمن قصيدة ثانية يعيد الشاعر نداءاته لبغداد بالأسلوب ذاته مفصلا ما امتازت به بغداد من خصائص حضارية سادت بها على الدنيا ، يقول من قصيدة في الأوضاع المتدهورة عام ١٩٦٠ بعد استلام عبد السلام عارف للسلطة وبداية التمييز الذي يلمح إليه من مطلعها[٥] :

بغـــداد ساء بك الهـــوى أم طابـــا سيـظل وجـــهك رائعا جذابـــا
قسمـــات شيخ بالجـلال متـــــوج وسمـــات غانيـــة تفيض شبابـــا
وحضارة تعطي المؤمل ما اشتهى فلكل ما طلب الخيـــال أصابـــا
فهنـــاك صب يستـــزيد من الهوى وهنـــاك حبـــر يستـــزيد ثوابـــــا
وهنـــا نواســـي تيمـــــم حانـــة وهنـــاك صوفي أتـــى محرابـــا
وهنـــاك رازي لـــذى أمبيـــقـــه وهنـــاك إسحـــاق يلحـــن يابـــا
وهنـــاك باقعـــة بأفـــلاك السما رصد النجوم وحرك اسطرلابا

وبحيث بالمستنصرية عالم يعطي العلوم ويكرم الطلابا
وبحيث رابعة يجللها التقى وعريب عن جسد تميط ثيابا
من كل ذا قسمات وجهك تجتلى مجدا وفكرا ناضجا وشرابا

ولا أريد الآن الخوض في تحليل القصيدة على ضوء موضوعها وغرضها لأنه سيمر بنا، ولكن لنقف عند ظاهرة التكرار المستمر لاسم بغداد عند كل مقطع وذكر تفاصيل تاريخها كمظهر من مظاهر التشبث بحب الوطن وإن كان يصعب الفصل بينهما.فقد استثمر الشاعر التراث بمختلف صوره فمن الأعلام ورد (أبو نواس) الشاعر الخمري المعروف في عصر ازدهار بغداد [٦]. و(الرازي) محمد بن زكريا (ت ٣١١هـ) العالم الفيلسوف المشهور بالطب[٧]، وأظنه يعني(الأنبيق) بالنون وليس بالميم وهي آلة تقطير وتبخير[٨]، وقد تقلب النون ميما عند النطق لتقارب مخارجهما لاسيما وأن المفردة غير عربية.

ومن الأعلام التي أوردها الشاعر (إسحاق الموصلي) المغني العباسي [٩]، وأراد بلفظة (باقعة) الداهية[١٠] ولم يحدد اسمه ، وربما عنى به بديع الزمان هبة الله بن الحسين إذ إنه مضروب به المثل في عمل الإسطرلاب وآلات النجوم [١١]، وقد يقصد به الفيلسوف الكندي فله رسالة في صنعة الإسطرلاب[١٢]، وهي كلمة أعجمية [١٣].

ومن الأعلام الواردة في القصيدة (رابعة العدوية) الزاهدة العابدة في البصرة[١٤].

أما (عريب) فهي المغنية المأمونية وقيل ابنة جعفر بن يحيى البرمكي ،وتوفيت سنة ٢٧٧هـ [١٥].

والشاعر في كل إيراده لهذه الأعلام والحوادث يشير إلى حضارة العراق ممثلة ببغداد في أبهى عصور ازدهارها في العصر العباسي، لأن الأعلام كلها التي أوردت تشير إلى هذه الحقبة المزدهرة من تاريخ بغداد .

وهو يرى في هذا الانتماء رمز الأصالة التي يعتز بها لذلك يقول[١٦] :

بغـداد أي أصالة بـــك كلمـا أمعنت فيها زدتني إعجابـا
صبت بك الأعراق مختلف الدما لكنـها ما غيـرت أحسابـا
فبقيـت سيفـا والـروافد كلـها بقيت كما شهد الزمان قرابا

هذه الأصالة التي يذكرها الشاعر يستمد وحيها من بغداد حين تأنس بموروثها العربي البدوي غير راكنة إلى مغريات عصرها من ترف جديد فيقول[١٧] :

أغـراك قيـل بالـركوب فعفتـه وركبـت مهـرا عاريا وثابا
وتـركـت ماء الجلنـار حريصـة أن تأخذي من شيحك الأطيابا
ونصبت جنب القصر خيمة فارس للريـح ظـل يشـرع الأبوابا
وبقيـت بنـت رداء رغـم وشيجة نقلـت إليـك مـلاءة ونقابا
ولشهـرزاد وإن نمتـك فلم تكن لتـذود عنك أميمـة وربابا
أبـت العروق فكان أصلك لابتي نجد وكان فصيلك الإعرابا

يرمي الشاعر من وراء ذلك إلى أصالة بغداد وانتمائها العربي البدوي من خلال إيراده لألفاظ البداوة مثل (المهر العاري، الشيح ، الخيمة ، الرداء،) أو الأعلام التي توحي بأصالة العربي وتمسكه بموروثه الأدبي مثل (أميمة ، رباب ، نجد) .

وفي موضع آخر من القصيدة يستثمر التراث في حب بغداد فيقول[١٨] :

سيظل من مجد الرشيد مؤثل يضفي عليك بسحره جلبابا
وتظل قينة دار سابور على غصن تردد سجعها المطرابا

وقوله : ((دار سابور)) معرب (شاه بور) يوحي به إلى الوزير بهاء الدولة وهو معروف بالفضل والعلم وكانت داره محط الأدباء والشعراء[١٩] ، وهذا البيت مأخوذ من مدح أبي العلاء المعري لهذا الوزير إذ ذكر داره بقصيدة مشهورة منها[٢٠]:

وغنت لنا في دار سابور قينة من الورق مطراب الأصائل ميهال
رأت زهرا غضا فهاجت بمزهر مثانيه أحشاء لطفن وأوصال
فقلت تغني كيف شئت فإنما عناؤك عندي يا حمامة إعوال

إذن للشاعر سمته الأسلوبية حين يذكر بغداد، إذ يحسن استثمار تراثها إبان عصور ازدهارها لأغراض مختلفة بعضها سياسي ينتقد الحاكم الظالم وبعضها الآخر يحن فيه إلى وطنه كما سيأتي.

٢- الفرات

وفي قصيدته (مع الفرات) تجل آخر لهذا الانتماء العميق فيقول[٢١] :

أســرت نــاظري فلن يستردا خطــرات علــى الفــرات المفدى
لجلال المهيب في المتن نخلا والجمال الأنيق في الجرف وردا
وحشود الأمواج تحضن بعضا فتــراها حشــدا يعانـــق حشدا
والنواعيــر ذكريــات رقــاق خلدت في الغرام ليلـــى و دعدا

إن هذا التفصيل الملح في الذاكرة دليل تعلق الشاعر بتفاصيل المكان من نخل وجرف وموج ونواعير وهو بعد ينم عن تمسك بالوطن وانصهار بالوطنية ، تلك الوطنية التي حملته على تصويرٍ حضارته بالعقد اللامع بجيد الزمان :

أيها الواهب الوجود حضارات بجيد الزمان يلمعن عقـــدا
عشت تمشي بجـــنب دجلتــك البيضاء عبر السنين ندا وندا
تصنعــان الحياة جسما وروحا وتمـــدانها من الخصب مدا
في نسيــج من المهارة والإتقان يمتـــاز صـــورة ومـؤدى
فإذا نينـــوى سمــت طاولتـــها أور تبني من الحضارة فندا
أو زهت سومر بروض خضيل صنعــت بابل أغض وأندى
وتلاقى سرجون جنب حمورا بــي إلى بانيبــال يبنون مجدا
وعلى سفح أور حيث سميـرا ميس في شرفة الخورنق هندا
هكــذا عاشـــت القرون بــواد يك سمــوا وروعــة لن تحدا
يا ضفاف الفرات كم فيك غيل مارد ينشـــيء المواليد اسدا
عرفتهم ملاحم المجد سيفـــا يعربيا يابى مدى الدهر غمدا

وإذا استنسبوا دعا البعض شيبـــــــان وبعض بكرا وبعض معدا

إن انتماء الشاعر إلى تراثه جعله يلح على فكرة الربط بين حاضره ومستقبله الأمر الذي حمله على أن يكثف في تعداد الشخوص والأعلام القديمة إمعانا في حضور هذا التراث واعتزازا بذكر هذا المجد الخالد فلا يكاد بيت يخلو من علم ما أو مأثرة حية، فمن الرمز العربي الذي ما فتيء الشاعر يكرره نجد ذكره لـ (ليلى ، دعد ،هند، شيبان ، بكر ، معد ،يعرب) ، ومن الرموز الحضارية الصانعة لتاريخ العراق القديم يذكر (سومر، نينوى، أور ،سرجون ، بانيبال، حمورابي،الخورنق ، سميراميس) .

الثاني: الشخصيات الوطنية والأدبية

للشيخ الوائلي صلات كثيرة برجالات العراق وشخصياته الوطنية والأدبية يدل عليها ديوانه وما نظمه فيهم من مراث ومدائح وإخوانيات جمعتها معهم وشائج الهم الوطني وإعلاء صوت الوطن والمواطنة .

فقد ذكر في قصائده أعلاما تركت أثرها في خدمة الوطن العراقي إلى يومك مثل : الشيخ محمد رضا الشبيبي ، وتوفيق الفكيكي ، وجعفر الخليلي ، ومحمد رضا المظفر ،والشيخ الدكتور محمد تقي الحكيم ، وعبد الرزاق المقرم ، فضلا عن أدباء شهروا في الوطن العراقي مثل أحمد الصافي النجفي ونازك الملائكة .

ولا ريب في أن كل تلك الشخصيات كانت البواعث الصادقة لقصائد الشيخ الوائلي الوطنية لأنها تتجاوز حدود المدينة إلى خطاب الوطن والأمة على عادة الشيخ رحمه الله ، ولنأخذ بعض الأمثلة على ذلك :

١-المرثيات

للشيخ الوائلي وقفات حزينة أبن بها بعض رموز السياسة والعلم والثقافة العراقية وسنقف على واحدة من مرثياته الوطنية لضيق المقام.

الشيخ محمد رضا الشبيبي

شخصية وطنية معروفة في تاريخ العراق الحديث بمناهضتها لأشكال الاستعمار الانكليزي والعثماني، وتفاعلها مع أحداث الوطن والأمة يشهد له بذلك نضاله الطويل[٢٢] وقصائده الرائعة في ديوانه التي وثقت تلك الأحداث الجسام كلها، إذ هو شاعر مطبوع على الشعر العربي[٢٣].

ومن الطبيعي أن تستقطب هذه الشخصية العظيمة أنظار المخلصين الحاملين لهم الوطن العراقي أمثال الشيخ الوائلي فكان أن رثاه في جملة من رثاه من الشعراء في المؤتمر التابيني لذكراه الذي عقد في النجف الأشرف عام ١٩٦٦ بقصيدة صادقة المعاني مطلعها [٢٤]:

يأبى لك الموت ما تعطي وما تهب الفكر والعطر والصهباء واللهب
موائد ما تكلفت العطاء بها لكن طبعت عليها والعلى نسب
كانت أباك الذي تنمى لمحتده وإن سما بك فوق النيرين أب
وكم يد لك بيضاء يطوقها للمجد ألف سوار ما بها كذب
أساور لم تجيء عفوا ولا أخذت من واجهات عليها الشك والريب
لكنها من لهيب خضت جامحه زكاك فيه الضنا والكد والتعب

فللثمانيــن أن تزهو بمــا حملت فليس فيهــن إلا اليانع الخصب

والشاعر حين يرثيه يتعمد ذكر ما أعطى للآخرين بروح الذين يستأثرون على أنفسهم [٢٥]:

تكــورت عمــة من فوق مفرقها يارب لا عدمــت تيجــانها العرب
أغنت بما منحتــه وهي في شظف وأسمنــت وهي في آلامهــا السغب
تعطــي وتمنــح لا من ولا عوض وتعــذر الذنب لا عتبــى ولا عتب
أكبــرت جهدا يغذي في تواضعه زهــو القصــور ولا تدري به القبب
دنيا الرسالات يا دنيا الرضا ومتى ذوو الرسالات راموا أجر ما وهبوا

ويتخذ الشاعر من نضال الشبيبي وعطائه سببا لاستنهاض الأجيال والاقتداء به فيخاطبه بقوله[٢٦] :

يا واهب الجيل وقدا من عزائمه الجيل يخضل منه وهو يلتهب
عوذت وقدك من ساجين جد بهم حفز الخطوب وهم في جده لعب
النائمين على البــلوى وحولهم قرع لو استمع الموتى له انتصبوا
الآكلي الطرق حتــى أنــهم وتد والشــاربي الذل حتى انــهم قرب
حــب السلامة طبع عندهم ولهم من القنــــاعة كاس كلها حبب

٢- الإخوانيات

وفي ديوان الوائلي الكثير من القصائد والمراسلات الإخوانية كان فيها الجامع هو الوطن، والمشترك هو حب الأرض، نحو قصيدة (الجريح العائد) وأرسلها إلى الشاعر أحمد الصافي النجفي إثر عودته من لبنان بعد أن أصيب برصاصة طائشة سنة ١٩٧٦م ، قال فيها[٢٧]:

يا عود جرحك لحــن بالعبير ندي فخل جرحك يشدو في ذرى بلدي
فــرب جرح على أنغامه سكرت دنيــا وما زال صداحا إلى الأبد

يا ابن الفرات وقد تاق الفرات إلى لحن على الشط والناعور مبتعد
غنى للبنان فاخضلـت شواهــقه ولفع السفـــع في زاه من البرد
وتينة الجبل استبـــــكته وحدتها ورب منفـــرد يبكي لمنفـــرد
وعلمته بـــأرض الشام صومعة يأوي إليها معاني الصبر والجلد
ونخــلة الشـــام كم أذته غربتها وأنـــها ما نمـــت يوما ولم تزد
قـــلب يوزع للـدنيـــا خوالجـــه شدوا وشجوا ولم يبخل على أحد
والشعر من طبعه النعمى وسابغة من العطـــاء بـــلا من ولا نكـــد

وكأن الشاعر بخطابه (يا ابن الفرات) وتكراره لهذه المفردة مرة ثانية إيحاء للصافي النجفي باقتضاء المناجاة للوطن والعودة إليه على سبيل الاستدراج والتحنن لذلك لم ينتظر طويلا بعد ذلك التفصيل بالتغني بمرابع الديار العربية حتى خاطبه صريحا[٢٨]:

يا أيها العائـــد المجـــروح نـــز له بالقلب جـــرح وجرح نز بالجسد
يا ابن الفرات وحمدا للرصاص فقد أعـــاد مغتـــربا لولاه لـم يعـــد
عد للفرات إلى الناعور يغزل في الشطين نجوى حبيب لا هب الكبد
للنـــــخل أعذاقه الصفراء يسكرها سجع الفواخت في جوق من الغرد
وللمواويـــل غذ تنساب من قصب الراعـــي فتطرب حتى سارح النقد
للسامرين ليالي البدر يجمعـــــهم نـــاي يقـــص حكايـــات بلا عدد

ويمضي الشيخ الوائلي في أسلوبه بالإيغال في ذكر العمق الحضاري لمدينة النجف العامرة بالبساتين فيقول[٢٩]:

وللدوالي بأرباض السدير بهـــا طيف من ابن عدي أو سرى دعد
ودير هند وقد مرت كواعبـــــه تمشي إلى الكرح في دل وفي أود
حيث الشعانين تستهدي مواكبه طريقـــــها بنهـــود للسمـــا نهد
وحيث يمزج ثرواني خمرتـــه بالخمـــر حين ابتغى ماء ولم يجد

وهذه لوحة قديمة للنجف ، فالأرباض والسدير[٣٠] ودير هند بنت النعمان[٣١] رموز أشار بها الشاعر إلى البساتين والرياض العامرة بهذه الأرض من ظاهر الكوفة ، أما ذكره لـ(ثرواني) فهو شاعر ماجن لازم أديرة النصارى في الحيرة ووصف أعيادهم ورهبانهم[٣٢] ، وأراد بالكرح بيوت الرهبان وهي قباب صغار يقال للواحد منها كرح [٣٣]وقد ذكرها أبو نؤاس حين وصف دير حنة من بعض أديرة الحيرة التي يقصدها المجان بقوله[٣٤] :

يا دير حنة من ذات الأكيراح من يصح عنك فإني لست بالصاحي

وفي صورة ثانية من صور الوطن القديم ذكر الشيخ الوائلي الكيت والمتنبي رمزين مميزين في الشعر العربي أنجبتهما الكوفة[٣٥] :

لكوفة الجند أطياف الكميت بها وندة ثقة في المتن والسند
لسامر المتنبي العبقـــري لدى ربوع كندة بالنقاد محتشد

ويختتم حضه للصافي النجفي على العودة إلى أهم رمز في ربوع الغريين فيقول[٣٦]:

لرملة النجف السمراء ضاحكة أبعادها بالأصيـــل الحلو والراد
في حيث تخصب أفكار معمقة لو جاءت العصر في أثوابه الجدد
وحيث يرقد عملاق مشاعلـــه ما زال بالكـون منـــها ألف متقد
عد فالمعار إلى أهليه مرتجع وقل لجرحك غرد في ذرى بلدي

إذن القصيدة ليست مجرد تهنئة بالعودة والسلامة إنها لوحة وطنية وتعداد لمآثر الوطن العراقي واعتزاز بنخله ونهره ونواعيره ومدنه ورموزه العملاقة المشرفة للإنسانية التي ختم بها قصيدته وعنى بها الإمام علي (ع) حين ذكر رملة النجف .

ومن قصيدة بعنوان (أسرار الحج) بارك فيها للشاعرة العراقية نازك الملائكة عودتها من حج بيت الله الحرام عام ١٩٧٤م قال [٣٧]:

يا أم براق عليك السلام دام لك الإيمان والالتزام
السعي مشكور لوادي منى والحج مبرور لبيت حرام
نزلت بيت الله ضيفا على أغنى خوان حاشد بالطعام
يا أم براق وللحج في أسراره ما لا يحد الكلام
فهل رأيت الله في بيته وهل لمحت الغيث خلف الغمام
وهل تسمعت إلى نغمة لم تسب إلا أذن المستهام
هل ذقت صهباء حسا صفوها الفارض والخيام وابن الهمام
غابوا بما ذاقوه من نشوة فيها فهم للآن صرعى نيام
وأنت قيثار سمعناه في ألحانه يسكر شدو الحمام
فترجمي ما سكب الحج في روحك من موسقة أو مدام

وقد أجابته الشاعرة بحسب ما ورد في ديوان الوائلي بقولها[٣٨] :

مولاي شكرا وعليك السلام شعرك ورد وسواقي غمام
هنأتني بالحج حجي رؤى روحية ونجمة في ظلام
والله في قلبي تعريشة والله نبع مغدق وابتسام
أبا سمير حقلنا غاضب شفاهه عصف وجوع وانتقام
إن لم نقاتل حجنا باهت وجمعنا في السعي محض ازدحام
وقوفنا في عرفات سدى وشعرنا الحلو كلام كلام

في دلالة بينة على الذات المنفعلة للشاعرة وتشاطر الهموم الوطنية وقضايا الأمة المصيرية مع الشيخ الوائلي.

الثالث: الاغتراب

عاش الوائلي شطر كبيرا من عمره في ديار الغربة ، منها غربة اختيارية قصيرة لأجل الدراسة وطلب العلم في القاهرة إذ حصل على الدكتوراه، ومنها غربة قسرية هي الأشد عليه واستمرت قرابة ثلاثة وعشرين عاما قضاها في دول الجوار العراقي يناجي سحر شواطيء دجلة والفرات من بعيد ، غربة فرضها عليه نظام البعث الصدامي المقبور وظلمه واستقصاده لرجالات الفكر والعلم في العراق عامة والنجف الأشرف خاصة، وهي غربة انتهت بنهاية حياته بعد سقوط صنم الطغيان عام ٢٠٠٣م ، إذ تكحلت عيناه بأرض العراق وتوفي فيها بعد أيام قلائل من عودته.

كان الوائلي في سنوات الغربة الطويلة فيضا من المشاعر الوالهة، ونبضا من الوجدان الصادق لوطنه العراق وأرضه الغري وانشداده لقبابه الشامخة، لا يقوى على كتمانه فكان يفيض شعرا تارة ولوحة من الخطابة المرتجلة تارة ثانية.

ولا مبالغة في القول إن قصائد الغربة في ديوانه من أكثرها غزارة بالمشاعر وأصدقها تعبيرا لمعاني الفراق،إذ طبق المفصل فيها، فهي بالغة التأثير في القارئ والمستمع معا، مثلما هو فيها وطني من الطراز الرفيع يعرف أين يناجي وطنه ومتى يسامره وكيف يستدر عطفه ويستثير وجده . وفي الأمثلة تبيان ما نزعم .

١- الغربة القسرية :

قال من قصيدة (حنين) وهي ذكريات إخوان في النجف [٣٩] :

ذكرتكـــم والليل برد ومئـــزر ورب هوى في هــدأة الليل يذكر
وأرقني من ذكريات شواخص تمر على ذهنـــــي تباعا وتعبر
فرحت وإيـــاها أهش لبعضها هوى يفعم الماضي شــذى وينظر
وأنشج من بعض فيوقظ لوعتــي أسى يتلظى في الضلــوع ويسعر
وسامرت ليلي دمعـــة وابتسامة وعشت ليالي العمر أطوي وأنشر

إلى أن تولى الليل يسحـــب برده وراح من الأحلام ريـــــان أشقر
أطلت مع الفجر المطل لـــواعج بكل صنوف الواقـــع المر تجأر

لاشك في أن الشعور بمرارة الاغتراب طافح في هذه الأبيات من أرق الذكريات بحلوها ومرها في الليالي الموحشة إلى اليأس الذي يحمله طلوع الفجر كونه بصنوف المرارة كلها وهو معنى يذكر بالبيت الشهير لامرئ القيس في معلقته [٤٠]:

ألا أيها الليل الطويل ألا انجل بصبح وما الإصباح منك بأمثل

وهذه (اللواعج) تمثلها صورة حية بخطابه المباشر الموحي بشدة القرب للأهل والوطن حين اختزلهم جميعا بهذه اللفظة الرقيقة (أحباي) فقال[٤١] :

أحباي والأمس القريب على يدي يخضب بالنعمى صبـاي ويغمر
نعمت به عطرا وشهدا ومجـلسا رقيق الحواشي بالروائع يعـمر
وصحب إذا أمعنت فيهـــم إساءة يهزك أن يستغـــــفروك وتغفر
فيا لنفوس لا حـــــدود لطهرها ومحض وداد صفـــوه لا يكدر

وللكوفة حصتها من تباريح الشوق بنخلها وجداولها:

أيا كوفة من نخـــــــلها وفراتها لنا ذكريات كالعـــرائس تخطر
مجالس في جنب الفـرات فراشنا بها عشب رطـــب ورمل معنبر
وسامرنا في غارب النخـل فاخت تغرد للعذق المـــــــدلى وتنقر
وقد خلبتها للأصيل جـــــداول تسيل على الوادي وبرد معصفر

ومثلما أحب أن يفرد بالخطاب أحباءه والكوفة كذلك خص عرين علي (ع) بالنداء المباشر فقال :

ويا أيها الرمل المهيـــمن بالحمى أعنـــدك من تلك العـــهود تذكر
وهل حفظت حباتك السمـر شدونا وظلت كمـــا كنا نخطط أسطر

ويا تلعات بالغـــــــري تحضني مغارب في إشراقها منك تفـخر
وحسب أمانينا رضى وكـــرامة بأن الذي نهـــــفو لمثواه حيدر

ونلمس في القصيدة إلحاحا على ذكر المكان مثل (جنب الفرات، الرمل المعنبر، غارب النخل، جداول، الوادي، الحمى،الغري، مثوى) في إشارة إلى شدة انشداده إلى وطنه فالشاعر في هذه الصور الحسية ((لا يقصد أن يمثل بها صورة لحشد معين من المحسوسات، بل الحقيقة أنه يقصد بها تمثيل تصور ذهني معين له دلالته وقيمته الشعورية)) [٤٢] لذلك كان عنصر المكان جزءا فاعلا من شعر الوائلي بمثل هذه الأغراض الفنية.

ومن قصيدة بعنوان (تحية العيد إلى أولادي) يقول[٤٣] :

أتى العيـد فاحتفـل الناس فيه من الطامـحين إلى القنـــع
تبرج في شكلـــــــه للبسيط وجلا بمعنـــــــاه للألمعي
وأعطى العيون وأعطى القلوب وقال لأنغامـــــــه لعلعي
وكنت عن العيد في معـــــزل فما طعم عيد ولستـم معي

وللشيخ أكثر من قصيدة في العيد بموضوع الحنين والفراق وما يثير في النفس من آلام، لأن طقوسه في العراق ربما كانت أكثر حنوا من أي مكان آخر، على الأقل على الذين خبروا فيه فراق الأبناء والأحباب لذا يرى الشاعر عدم لذته [٤٤]:

فـمي لعيونكـــــم النائيات به قبـــلات ولـم تطبـــــع
وما العيـــد في كل إشراقـه بدون وجوهـــــكم مقنعـــي

العيد بكل ما يحمل من إشراق غير مقنع للشاعر بسبب الصور المفصلة التي سيعرضها عن ذكريات الأبناء[٤٥] :

بني يلذعنـــــي بعدكـــــم كما يلـــذع الجرح بالمبضـع
ولي خافق إن كواه الجـــوى شدى في حمائـــــمه السجع
وما لـــــذع القلب مثل البعاد فغـــــــــرد في نغم لوذعي
إذا ما تمليتكـــــم في الخيال أحن كأم إلـــــــــى الرضع
وإما ألـــــــحت علي الرؤى ألـــــــــح السهاد فلم أهجع
وأغرقني الوجـــد في خافقي وأحرقني الجمر في أضـلعي
فارجـــــــع أحضن نجواكم لدى وحشـة الليل في مخدعي
بنـــــــي وإما أطل الخيال يقض بقلب الدجى مضجـــعي
ويسري بروحي عبر المـدى لوادي الغرييـــن لا الأجرع
فأحســـــــب أني ما بينكم وأني أوســـــــــدكم أذرعي
وادنـــــي الغطاء لكي تدفأوا ولا يلذع البـــــرد من لم يعي
وتمضي الرؤى فإذا بـــي هنا غريبا عـــــن الأهل والأربع
تقـــاسمني الحزن والكبرياء فـــهذا يئـــــــن وذي تدعي

هذا الإحساس الحزين بفقد الأبناء لم يقف عند هذا الحد حتى خرج به الشاعر عن معناه الضيق إلى ربطه بفضاء الوطن وتفاصيل أماكنـه في دلالـة واضـحة على شدة تعلقه به وكأن المعادل الطبيعي لفراق الأبناء فراق الوطن ، فقال:

بنـــــــــي على بلد ضمكم ملاب الشذى في السنا الأروع
عرين علي ومـــــــأوى أبي تراب ودار الحمـــــى الأمنع
سمات الكليم وطيـــف الخليل على ذكـــــــــوات به أربع
وواد على تـــــربه أمرعت قرائح للملهـــــــــم المبدع
ومعقـــــــل للنفر النابغين ومحـــــراب للسجـــد الركع
ورمل تسيل عليه العصور بتاريخـــها الألـــق المبـــدع
وروح من ابن ابي طالـب تمـــد الخضيل على بلقـــــع
ويا أيها العيد في غربتـــي وددت طبولـــك لم تقـــرع

فما عاد وقعـــك في خاطر سبته الهمـــوم بذي موقع

ويبدو أن الإلحاح على ذكر المكان فيض من الشعور الخفي قصد من ورائه الشاعر استحضاره بقصد عقد ارتباط محسوس بينه وبين محبيه بغية ضمان نقل المشاعر نقلا صادقا ومؤثرا فضلا عن كون المكان((يعطي دلالة واضحة على وطنيته وتعلقه بهذه الأرض التي حنت عليه وغذته)) [٤٦] .

٢- الغربة الاختيارية

وهذه القصائد تتوزع بين لبنان ولندن ومصر، وتبدو شدة لوعتها في مصر إذ كان يدرس فيها الدكتوراه وربما طالت عليه فيها ليالي البعد والفرقة ، يقول من قصيدة مخاطبا النيل في القاهرة [٤٧]:

ورؤى سميراميس وهي من السنا بـغـلالة ومن الشـــذى بملاب
ومن الليالي الألف تخطر دجـــلة منهـــــــن في زاه من الأثواب
وبها علية والرشـــــــيد وجعفر سكروا على الأنغام من زريـــاب
وأبو نؤاس مر ينشـــــــد حانة فسقوه حتى طـــــــاح بالأعتاب
ومن الرضـــــــي وليله وقلائد حميت بفعل عناقـــــــه الملهاب
ومـــن القيان ودار سابـــور ومن متـــع لذيذات المـــذاق عذاب
من كل ذاك إلـــــى لهيبـــك مثلـــه فكلاكما لـــهب على الأعصاب
وإلى ابن رمسيس الذي غزل الهوى هذا النسيـــج من ابن حمورابي

ولا يتخلى الشاعر أبدا عن استلهام تراثه في حديث الذكرى والفراق، فيتعمد حشد الأسماء التاريخية التي تشير إلى العمق الحضاري للعراق مثل (علية والرشيد وجعفر البرمكي وزرياب وابو نؤاس والشريف الرضي ودار الوزير بهاء الدولة سابور) ليمضي إلى عمق حضاري أكثر مقابلا بين رمسيس مصر وحمورابي العراق.

وفي قصيد ثانية بعنوان (إلى ولدي علي)نظمها في القاهرة سنة ١٩٦٩م ، يقول فيها[٤٨] :

طــيوفك الحلوة الوسـنى بني علي في كل درب أراها وهي تضحك لي
ملت كل جهاتي والـــــزمان فلا وجــه ولا زمـــــن إلا وفيه علي
أراك في كل طفل في الطريق مشى يدحو برجليه ما يلقـــــاه من زبل
يظل حين يرى في دربـــــه جملا لم يشتروه له يبـــكي على الجمل
فأغتدي خفقة في قلـــــب كل أب يرعى على البعد فرخا غير مكتمل

وليس غريبا هذا التصوير الصادق لمشاعر الأبوة الحانية، ورصد المشاهد البريئة للطفولة وهي تمشي ضاربة برجليها في الطريق كل ما يعترضهما، ولكن الغريب – وما هو بغريب على الشيخ الوائلي- هذا الامتزاج بين مشاعر الأب المشتاق إلى ولده وبين مشاعر الوطنية وكأن الحنين إلى الأولاد ليس غرضه الرئيس من القصيدة على الرغم من أن عنوانها (إلى ولدي علي) لينتقل منها سريعا إلى ذكر مرابع الوطن[٤٩]:

ودجـــــلة أيقظتها بعد ســـهرتها أصباح نيسان فانسابت على كسل
وما تزال الصبايا الشقر تصرعها بقية الراح عند الشاطئ الخـــضل
وروعة في الفرات الحلو يسكبها ذوب الأصيل على شطآنه الشـهل
وقد تعانــق مـــــــــوال وأغنية تخضب الجرف بالتنهيد والغــزل
وللنخـــــــــيل ظلال يستحم به وللهوى موســـم بالزورق الجذل

هل بقي مكان من العراق لم يذكره الشيخ الوائلي، وهل ثمة مناسبة لم ينتهزها في الانتقال إلى التعبير عن تباريحه إلى محبوبه الوطن العراقي ، أليست هذه عبارات العاشقين وصورهم التي ملأت هذه الأبيات (انسابت على كسل، بقية الراح، الشاطئ الخضل، شطآنه الشهل، تعانق موال وأغنية ، تخضب الجرف بالتنهيد والغزل، للنخيل ظلال، للهوى موسم) ، إنه حقا العشق للأوطان .

الرابع: رفض الأنظمة الاستبدادية والطائفية

١ ـالحكم العارفي

والوائلي شاعر ثائر منتفض على الظلم بكل صوره المقيتة ، فكان يبوح ذلك شعرا كلما سنحت له فرصة في مناسبة أو مؤتمر شعري مجاهرا بعدائه للظالمين غير مداهن لهم، فمن قصيدة ألمح فيها إلى السياسة التمييزية لحكم عبد السلام عارف فقال[٥٠] :

بغـــــداد ساسك حكام وغاشية من سف في حكمه منهم ومن سمقا
ممن أرادك للأفكـــــار منتجعا ومن أرادك يا بغداد مرتـــــــــزقا
ومن جلاك عروسا يستـــبد بها ومن نضاك الحسام العضب وامتشقا

بهذا الهجوم المباشر وبهذه الثورية أعلنها الشيخ الوائلي حربا على المفسدين بصورة عامة ولكنه سرعان ما حصر (شرهم) فقال:

لكـــن شرهم من جاء ينشد في مغنـــاك جارية تثري به الشبقـا
لا يبتغي منك إلا حجر عـــاهرة تعطي الروادف والأعكـان مرتفقا
حتى إذا ما ارتوت منه غرائـزه سواك عبدا مهينا يحسن الملقـــا
وراح يخترع الأمجـــاد يغدقها عليك فيما روى منهـــا وما اختلقا
وحولـــــــه نفر مسخ تصيده من كل ساقطة جذرا ومعتـــــنقا

فقد صور هذا الحاكم لبغداد بالخلاعة والمجون في أبشع صورهما ولكنه يعود فيأمل من بغداد أن تنتفض باستثارة أمجادها :

بغـــداد تاريخك الماضي يحدثنـا بأن خـــــــدك جبار وإن سحقا
وانك الصل يخشى الوثب منه وإن أراح فوق التراب الخد والتصقا
ثوري لعنت فماذا بعد مغتـــصب أتاك يهدر فيـــك البضع والعنقا
أكبرت وعيك عن زيف يخـــادعه حتى ولو كان زيفا بارعا لبقـــا
ألم تكـــــوني مهادا للشموس فما أغرى بك الليل حتى أحكم الغسقا

وبهذه الثورة المعلنة يخاطب هذا الحاكم فيقول [٥١]:

يا من أدار شؤون الناس في شطط مـــن المقاييس لا عدلا ولا خلقـــــا
ومن رمتنا به الأيـــــام إذ هزلت والأرض إ ذ أجدبت والدهر إذ بصقا
ما عنكم موضـــــع للشتم نشتمكم منه فأنتم مسوخ يا بني الطلقـــــــا

وتحمل هذه الأبيات غاية الاستخفاف والاحتقار لهذا الحاكم في صورة رائعة الملامح لاسيما في قوله (رمتنا به الأيام مع الهزال والجدب والبصق) ، ويمضي قدما في هذا الخطاب الثائر المباشر قيقول:

يا ساسة الزيف بر شعبـــكم بكم فلا تكونوا وقد عض البلا عقـــقا
الحبل دار وأنتم في متـــــارفكم تربصون لتبـــــــكوه إذا شنـقا
وتجعلـــــــوه تراثا تأكلون به ومنبرا ولســـانا عارما ذلقـــــا
ألستم أوليـــــــاء الدم علمكم قميص عثمان أن تستثمروا الحمقا

فمن الشطط إلى الزيف والتربص والانتهازية من خلال الرمزية التاريخية لـ (قميص عثمان) يكشف الشاعر عن الدواخل المريضة للحكام المستبدين أمثال حاكم بغداد آنذاك.

٢-الحكم الصدامي

وفي هذا الحكم الجائر الذي لم يقع له مثيل في تاريخ العراق الحافل بالمتسلطين على الرقاب بالنار والحديد نجد الخطاب الشعري عند الشيخ الوائلي خطابا غير مباشر إذ ينأى به عن التصريح لاجئا إلى الكنايات والتعريض بالحاكم الظالم في طيات شعره الاجتماعي أو الإخواني إلى الحد الذي ابتعد عن عقد قسم خاص بالشعر السياسي كما فعل في جزئه الأول من ديوانه الشعري، ويبدو أن ديوانه بجزأيه مثل حقبتين لدورين سياسيين من تاريخ العراق المعاصر مثل الجزء الأول الحكم التمييزي المقيت لعبد السلام عارف ، بينما مثل الجزء الثاني التسلط الجائر للحكم البعثي لاسيما الصدامي .

وفيه يبدو أنه يفضل التوصيف العام للظالمين تارة والسخرية بهم في تارة أخرى ، غير أنه يختلف هذه المرة عن شعره السياسي إبان عقد الستينات من القرن الماضي في كون لغته غير مباشرة تجنب فيها أسلوبه الخطابي الحاد، ولكنها أكثر مرارة وألما من ثورته الشعرية على حكم عبد السلام عارف على الرغم من كونه امتدادا له في أسلوب التمييز وتبني النهج الطائفي.

في قصيدة (لغة السياط) يوضح فلسفته في التعامل مع الطغاة وتعاملهم مع الرعية[٥٢] :

أمـــــرتني السياط ألا أقـــولا ويـــد السوط حين تضرب طولا
فـــــإذا قالت السياط سكتنـــا رب صمت أجـــــدى وأبلغ قيلا
وخنقنا الأصـــوات إلا أنينـــا ومتى اسمع الجـــــــحيم هديلا
ران صمت فلم يعد غير صوت قـــــــال زورا وأحسن التعليلا
وتغني للحاكمين على رقـــــــــص قـــرود تمارس التمثيـــــلا

هكذا قصة الطغاة قبـــــــور تدفن الفكر والعطاء الأصيـــلا
يذبحون الأحرار دأبا ويستحيـــــــــون من معشر النعـــاج رعيلا

ويبدو أن الشيخ الوائلي في هذه المرحلة التي يمكن تحديدها من بدء تسلط البعث الصدامي على الشعب العراقي قد انتهج اسلوب الخطاب العام الذي يبتعد عن التحديدات ففيه لن نجد اسما لـ (العراق ، بغداد..) مفضلا صيغ أكثر شمولية مثل (السياط، الحاكمين ، قصة الطغاة) فضلا عن الصيغ الغائبة مثل (يذبحون ، يستحيون) وربما لذلك الأسلوب أسبابه الاجتماعية والشخصية التي كان الشيخ بحكمته يراعيها.

ويصور وجه الظالمين من الحكام في قصيدة (خداع) فيقول[٥٣] :

تعب الردح واشمـــــأز النشيد واستـــــحى من خداعه التمجيد
وتهـــرى الهراء إذ مله السمع فما فيـــــه حين يتلى جديد
فإلى م الهتاف للمســـخ يبدي للبطولات ضخـــــمة ويعيد
حافل بالتـــــزوير يرتجل البهتـــــــان فيمـــا يقوله ويشيد
والمسيرات إنها أتخمـــــــتنا كـــــل يوم ترف فيها بنود
يا لرزء الذوق السليم من الهر جة جوفـــــاء ليس فيها مفيد
أوجه الهاتفين يطغـــى عليها خوف قطع الرغيف والتهديد
حشدوهم من كل فـــج فوعد لفريق وآخـــــــرين وعيد
جردوهم من آدميتـــهم قسرا فهـم للحكام قـــــــن عبيد
حشروهم للرقص والنط حتـى خجـــلت من مقلديها القرود
رددوا الكذب في الشعارات حتى صدقوها وصـــدق الترديد
والخدوع الذي يحسب الشعـــــــــــب بليدا لهو الغبي البليد

وتلك صور الحاكم الصدامي في العراق وقتذاك، يعرفها كل من عاش لوعة تلك السنين (فالردح والنشيد والتمجيد والهتافات والبطولات الفارغة والمسيرات والرقص والنط والكذب والشعارات الرنانة) مما عرفت بها ثقافة تلك المرحلة في السلطة الجائرة على العراق.

ولكل ذاك قال[٥٤] :

أيها الحاكمـــون قد طفحل الكيـــــل فما في الإناء ما يستــزيد
جأرت ألسن المقاييس تشكـــو خرقها حيث للحـــدود حدود

بهذا الخطاب العام (أيها الحاكمون) الذي يحس به كل من عرف الشيخ الوائلي أنه يعني به حكام العراق المتسلطين على رقابه قهرا فضل الشاعر لغة جديدة مغايرة لما عرف به من إسناد واضح الدلالة كأن يقول (حاكم بغداد ، أو ساسة الزيف الجدد..).

وله يقول ثائرا وزاهدا (بدنيا الظالمين)[٥٥] :

كفرت بدنيا من مســوخ أناسهـا يعبـــون من حقد بها وضغون
حبيب لهم مرآى اب فارق ابنـــه فأغرق في وجـــد وطول أنين
وآهـــــات أم أثكلوها ببعلهـا وفاضت لها بالركل روح جنين
وما أطربت أحقادهم مثل مـديـة تفنن في قـــــطع وبقر بطون
دموع الثكالى خمرة في كؤوسهم ونـــــوح اليتامى نغمة برنين
أتنشد جنات بقلب جهنـــــــــم معاذ النهى ما مثل ذا بقميـــن

لاشك في أن الأبيات تنطوي على مرارة كبيرة تصور مشاهد أقبية السجون وتعذيب المعتقلين من نساء ورجال على حد سواء وهي مشاهد باتت حكايا الناس في عهود البعث المقبور ، غير أن الشاعر تناولها من دون أن يشر إليها بالخطاب

المباشر الذي عرفناه فيما مضى كما مر بنا لاختلاف المناخ السياسي والاجتماعي بين مرحلتين جد حرجتين مر بهما بلدنا الحبيب وشاعرنا رحمه الله .

٣- نبذ الطائفية

ومثلما ثار الشيخ الوائلي على الأنظمة الاستبدادية بخطاباته انتفض على دعاة الطائفية والتمييز المذهبي كلما توافر له منبر الشعر ، ففي عام ١٩٦٥ ألقى قصيدته في مؤتمر الأدباء العرب جاء فيها[٥٦] :

ومشت تصـــنفنا يد مسمومة متســـنن هذا وذا متشـــيع
يا قاصـــدي قتل الأخوة غيلة لموا الشباك فطيرنا لا يخدع
غرس الإخاء كتابنا ونبـــينا فامتد واشتبكت عليه الأذرع

وفي عام ١٩٦٤ أيام حكم عبد السلام عارف الراعي الرائد للطائفية في العراق هاجم الشيخ الوائلي هذا النفس البغيض فقال[٥٧] :

فيا باعثـــــيها نعرة جاهليـة محمـــد واراها التراب تورعوا
عذرتكم لو أن ما تنبشـــــونه عظام ولكـــن جيفة وهي أبشع
ولو أن ما تبغـــونه من ورائها خفـــــي لقلنا عابث سوف يقلع
ولكنه الكرسي مهما برعتـــم الخداع يغطـــي رأسه ثم يطلع

إن فكر الشيخ الوائلي واسع الأفق ولغته تتجاوز ضيق المحلية والمذهبية، لذلك رأى في التمييز الذي عرف به حكم عبد السلام عارف نعرة جاهلية مقيتة حذر منها الشيخ بذكره النبي (ص) ومواراته لها في التراب والقضاء عليها.

وجملة الكلام إن قصائد الشيخ الوائلي تعد من أظهر تجليات الوطنية المتشبثة بحب المكان والزمان من مرابع بلده .

الخاتمة

مما سبق من البحث يمكن الانتهاء إلى جملة من النتائج نجمعها بنقاط:

أولا: أن شخصية الشيخ الوائلي شخصية شاعرة وطنية تتجاوز الضيق الطائفي والقومي إلى أفق أرحب من الوطنية .

ثانيا: تحددت بواعث الخطاب الوطني في شعر الشيخ الوائلي بثوابت انصهرت فيها المشاعر الوطنية بشكل واضح وهي : الأول: الانتماء والولاء لرموز الوطن ، والثاني : الشخصيات الوطنية والأدبية ، والثالث : الاغتراب ، والرابع : رفض الأنظمة الاستبدادية والطائفية .

ثالثا: في شعر الشيخ الوائلي الخاص بالخطاب الوطني حضور واسع للمكان برموزه المختلفة وشخوصه.

رابعا: تفاوتت حدة الخطاب قوة وضعفا وتصريحا وكناية من عهد إلى آخر إبان الأزمنة التي حكمت العراق في عقوده الماضية.

الهوامش

(١) ظ.مجلة البلاغ،(السيد الحسني) لـعبد الحميد راضي ،عدد٩-١٠،: ١٠١
(2) الديوان : ٥٢/١
(3) نفسه :١/ ٥٣
(4) نفسه :١/ ٥٣
(5) نفسه :١/ ٦٧
(6) ظ.ديوان أبي نؤاس:
(7) ظ.الفهرست ،ابن النديم :٣٥٦،عيون الأنباء في طبقات الأطباء،ابن أبي اصيبعة:٤١٤،سير أعلام النبلاء،الذهبي: ٣٥٤/١٤
(8) يبدو أنها لفظة غير عربية لم ترد في معاجم اللغة ولكن استعملت في كتب التفسير وغيرها كثيرا مثل:الرازي في تفسيره: ٢٠٧/٢٤، تفسير الآلوسي: ٩٦/١٣، قانون، ابن سينا: ١٦٧/٢
(9) الأنساب، السمعاني: ٣٥٤/٥، الوافي بالوفيات، الصفدي: ٦٥/٦
(10) ظ.لسان العرب،ابن منظور: بقع
(١1) ظ.سير أعلام النبلاء،الذهبي: ٥٢/٢٠
(١٢) ظ.الفهرست، ابن النديم : ٣١٧ .
(١٣) ظ.كلمة الاسطرلاب في :كشف الظنون،حاجي خليفة : ١٠٦/١
(١٤) ظ.سير أعلام النبلاء، الذهبي: ٢٤١/٨، الأعلام، الزركلي: ١٠/٣، وفيات الأعيان، ابن خلكان: ٢٨٥/٢
(١٥) ظ.الكامل في التاريخ، ابن الأثير: ٤٤٠/٧، فوات الوفيات : ١٧٠/٢
(١٦) ديوان الوائلي :١/ ٦٨
(١٧) نفسه:١/ ٦٨
(١٨) نفسه:١/ ٦٩
(١٩) وفيات الأعيان، ابن خلكان: ٣٥٦/٢
(20) ظ.سقط الزند، المعري: ٢٣١ ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، ابن خلكان : ٣٥٦/٢
(١2) الديوان :١/ ٦٤
(22) ظ.قادة الفكر الديني والسياسي في النجف الأشرف، محمد حسين الصغير: ٢٤٥-٣٠٠
(23) ظ. ديوان الشبيبي : ٢٦-٢٩- ٤٧-٤٩-١٨٣-١٨٨
(24) ديوان الوائلي :١/ ٩٢
(25) الديوان:١/ ٩٣
(26) لمصدر نفسه والصفحة
(27) الديوان :١/ ١٠٢
(28)نفسه :١/ ١٠٢
(٢٩)المصدر نفسه والصفحة
(٣٠)ظ.معجم البلدان، الحموي: ٢٠١/٣
(٣١)ينظر في تاريخ هذا الدير وغيره من الأديرة المنتشرة في ظاهر الكوفة : معجم البلدان، الحموي: ٩١/٥، ٥٤١/٢، معجم ما استعجم، البكري: ٥٧٩/٢
(٣٢)ظ.معجم ما استعجم ، البكري: ٥٧٩/٢
(٣٣)ظ. لسان العرب، ابن منظور: ٥٧٠/٢
(٣٤)ديوان أبي نواس : ٢٦٤/١
(٣٥)الديوان : ١٠٢/١
(٣٦)المصدر نفسه والصفحة
(٣٧)نفسه :١/ ١٠٥

(٣٨)نفسه :١/ ١٠٦
(٣٩)نفسه :٢/ ١٢٢
(٤٠)ديوان امرئ القيس: ٢٥
(٤١)الديوان :٢/ ١٢٢
(٤٢)التفسير النفسي للأدب، عز الدين اسماعيل: ٧٠
(٤٣)نفسه:٢/٩٠-٩١
(٤٤)المصدر نفسه
(٤٥)نفسه :٢/٩٠-٩١
(٤٦)تراسل الحواس في شعر الوائلي، كاظم عبد الله،مجلة مركز دراسات الكوفة،العدد(٦): ١٧١
(٤٧)الديوان : ١/٣٦
(٤٨)نفسه : ١/١١٨
(٤٩)نفسه : ١/١١٨
(٥٠)نفسه : ١/٤١
(٥١)نفسه : ١/ ٤٢
(٥٢)نفسه : ٢/ ٥١
(٥٣)نفسه :٢/ ٦٢
(٥٤)نفسه :٢/ ٦٢
(٥٥)نفسه : ٢/٨٣
(٥٦)نفسه :١/ ٥٥
(٥٧)نفسه :١/ ٣٤

المصادر

أولا/ الكتب المطبوعة

- الأعلام، خير الدين الزركلي ، دار العلم للملايين ، بيروت- الطبعة الأولى، ١٩٨٠م .

- الأنساب ، السمعاني، تحقيق: عبد الله عمر البارودي،الطبعة الأولى، دار الجنان، بيروت – ١٩٨٨م

- التفسير النفسي للأدب، عز الدين إسماعيل، دار العودة ، بيروت، الطبعة الرابعة- ١٩٨١م.

- ديوان امريء القيس ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، الطبعة الرابعة - دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٤م.

- ديوان الشبيبي ، دار النشر والتأليف ، القاهرة ١٩٤٠م

- ديوان الشيخ أحمد الوائلي ، بدون تاريخ .

- سقط الزند، أبو العلاء المعري ، دار صادر ودار بيروت -١٩٥٧ .

- سير أعلام النبلاء،شمس الدين الذهبي، إخراج : شعيب الأرنؤوط، تحقيق : حسين الأسد ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة التاسعة ، بيروت- ١٩٩٣م.

- شرح ديوان أبي نواس .ضبط معانيه وشروحه : إيليا الحاوي ، الشركة العالمية ، بيروت ، ١٩٨٧م .

- عيون الأنباء في طبقات الأطباء،ابن أبي أصيبعة، تحقيق: دكتور نزار رضا ، بيروت – دار مكتبة الحياة.

- فهرست ابن النديم ،ابن النديم البغدادي ، تحقيق: رضا تجدد .

- فوات الوفيات ، الكتبي، تحقيق: علي محمد بن يعوض الله و عادل أحمد عبد الموجود ، الطبعة الأولى-٢٠٠٠م ، دار الكتب العلمية، بيروت .

- قـادة الفكـر الـديني والسياسـي فـي النجـف الأشـرف، الـدكتور محمـد حسـين الصغير،مؤسسة البلاغ ،الطبعة الأولى ٢٠٠٨م ، بيروت- لبنان.

- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، دار صادر ودار بيروت ، بيروت – ١٩٦٥م .

- كشف الظنون،حاجي خليفة ، دار إحياء التراث العربي، بيروت .

- لسان العرب،ابن منظور ، دار صادر ودار بيروت ، لبنان ١٣٧٩هـ ـ ١٩٥٥م.

- معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار إحياء التراث ، بيروت- ١٩٧٩م.

- معجم ما استعجم ، البكري الأندلسي، تحقيق: مصطفى السقا ، الطبعة الثالثة ، عالم الكتب، بيروت – ١٩٨٣.

- موسوعة أعلام العراق في القرن العشرين، حميد المطبعي، الشؤون الثقافية، بغداد – الطبعة الأولى،١٩٩٥م.

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، ابن خلكان ، تحقيق: إحسان عباس ، دار الثقافة – لبنان.

ثانيا / المجلات

- مجلة البلاغ،العدد التاسع والعاشر ، السنة الثالثة، ص١٠١، السيد أحمد الحسني ، عبد الحميد راضي .

- مجلة مركز دراسات الكوفة،العدد السادس،٢٠٠٧م، تراسل الحواس في شعر الشيخ أحمد الوائلي، كاظم عبد الله .

ملخص البحث

لم تتناول الدراسات الأكاديمية شعر الشيخ الوائلي ببحوث وافية، ولاسيما المنطلقات التي أسست لقريحته الشاعرة، ومن هنا جاء هذا البحث بعنوان(بواعث الخطاب الوطني في شعر الشيخ الوائلي) ليدرس هذه الظاهرة الجديرة بالوقفة المتأنية .

وجاءت خطة البحث في تمهيد عرض للشخصية الشاعرة للشيخ الوائلي ، وأربعة مباحث بغية الإحاطة بهذه البواعث وانحصرت بما يأتي :

الأول : الانتماء والولاء

الثاني : الشخصيات الوطنية والأدبية

الثالث : الاغتراب

الرابع : رفض الأنظمة الاستبدادية والطائفية .

واشتملت الدراسة على مصادر متنوعة من الشعر الحديث والقديم فضلا عن النقد ومصادر البلاغة التي أعانت الباحث كثيرا على الوقوف على النص الأدبي وقفة تحليل واستنتاج ، مثلما كان للمصدر التاريخي الفضل في إلقاء الضوء على المعلومة القديمة التي جاءت في قصائد الشيخ الوائلي.

يبقى البحث محاولة علمية جديدة للكشف عن الخطاب الوطني لشخصية وطنية جرت عليها تعمية واضحة طوال عقود من الزمن في عهود النظام السابق المباد في العراق.